عنوان البرنامج: مبادئ التصوف وهوادي التعرف
الوحدة الأولى: مدخل لعلم التصوف
الدرس الثالث: التصوف والعلوم الإسلامية
اسم المحاضر: الدكتور إسماعيل راضي

التصوف والعلوم الإسلامية

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

العلمُ في زمن النبوة: كان يُطلق، كما ذكر حجة الإسلام في الإحياء: «على طريق علم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب..»؛ في زمنِ النبوة لم يعرف الناس العلوم الإسلامية ولا مصطلحاتها ولا تفصيلاتها، لم يعرفِ الناسُ علومَ النحوِ والبيان والبلاغةِ، ولا علومَ الفقهِ والقرآن والحديث وغيرها،... وإنَّما دَعَتْ أحوالُ الناسِ إلى وضع هذه العلوم لحفظ الدين وصيانته حتى يبقى كما كان عليه في زمن النبوة، وسمّوها علوم الشريعة، وعلوم إسلامية، وعلوم الدِّين.

فأهل الجزيرة العربية كانوا يقْرِضون الشعر بالسليقة والفطرة كابراً عن كابر؛ دون أن يعرفوا شيئا من قواعد اللغة والنحو، فهؤلاء، هل يَلزَمهم تعلُّم قواعد اللغة والنحو؟، أكيد لا... لكن مع تفشي اللحن وضعف التعبير، أصبح علم النحو واللغة لازما وضروريا... نفس الشيء في جميع العلوم الإسلامية:

علم الفقه: الذي تنضبط به أركان الإسلام، كان الصحابة الكرام يتلقون أحكامه بالمعاينة عن رسول الله ﷺ دون أن يعرفوا شيئا من العلوم الفقهية المتداولة اليوم، وهي لا تَلزمهم ولا يحتاجونها،... لكنها أصبحت لازمة وضرورية بفعل النوازل والحوادث التي نشأت بعد العصر النبوي...

علم التوحيد والعقائد: الذي تنضبط به أركان الإيمان، أصبح ضروريا ولازما بعد اتساخ الفطرة والبيئة الإيمانية، وبعد ظهور أوحال التوحيد والفرق الضالة كالمشبهة والمجسمة والمعطلة وغيرهم.

علم التصوف: الذي تنضبط به مرتبة «الإحسان» (مرتبة المراقبة والشهود والحضور)، أصبح كذلك لازما وضروريا بضعُف الحالُ القلبي والأخلاقي والسلوكي للمسلم، فيه قال الشيخ زروق في قواعده: «نسبة التصوف في الدين نسبة الروح من الجسد؛ لأنه مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ لجبريل(عليه السلام)[أن تعبد الله كأنك تراه]. إذ لا معنى له سوى ذلك».

وأرباب التصوف (فقهاء القلوب، شيوخ التربية) يجتهدون وِفق قواعد وضوابط تزكوية لمعالجة النوازل والحالات الطارئة؛ في ذلك قال الشاطبي في الاعتصام: «العوارض الطارئة على السالكين إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني، فيُتكلَّم فيها بحسب الوقت والحال، وما يُحتاج إليه في النازلة الخاصّة؛ رجوعاً إلى الشيخ المربي، وما بيّن له في تحقيق مناطها بفراسته الصّادقة في السّالك بحسَبِه وبحَسَبِ العارض، فيداويه بما يليق به من الوظائف الشرعية والأذكار الشرعية، أو بإصلاح مقصده إن عرض فيه العارض... فمِثل هذا لا بدعة فيه؛ لرجُوعه إلى أصلٍ شرعيٍّ».

العلوم الإسلامية وخاصية التوفيق والتكامل: أي التوفيق والتكامل بين أحكام الشريعة في الظاهر وفي الباطن، هذا المعنى التكاملي بين علوم العقيدة والفقه والتصوف –بين أعمال الظاهر وأحوال الباطن–، قد مارسه وجسده النبي ﷺ والصحابة والتابعين، وهو مما جاء به الوحي ونزل به القرآن وجاءت السنة. الصوفي بهذا الصدد، كما قال الشيخ زروق (إعانة المتوجه المسكين إلى طريق الفتح والتمكين، ص27): «لا يفارق السلف في معتقده، ولا يفارق الفقهاء في معتمده، لأن العقائدَ رأس ماله والأحكامَ أساس أعماله».

التصوف علمٌ مكمّل ومسدّد لباقي علوم الملة: يُرجع في ذلك مثلا إلى كتاب «الرعاية» للمحاسبي، وكتاب «العلل» للحكيم الترمذي، و»الإحياء» للغزالي،... لمعرفة مدى مساهمة التراث الصوفي في تعميق النظر في المقاصد الكبرى للعلوم الإسلامية... كما أنّ الصوفية كانوا أحرصَ الناس على التحقق بالمقاصد العليا للدين؛ فيهم قال الشاطبي في الموافقات (173/4): «وبذلك سادوا غيرهم ممن لم يبلغ مبالغهم في الاتصاف بأوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه».

الصوفية وتنزيل العلوم الشرعية تنزيلا حيا على أرض الواقع: اشتغل الصوفية بالعلم، لا كحلية يُتزين بها، ولا لدنيا يُصيبونها، ولا كمفاهيم وقواعد نظرية مجردة...؛ من ذلك مثلا ما ذكره صاحب «التشوف» أن أبا مدين الغوث، حين إقامته بمدينة فاس، كان حريصا ألا يتجاوز ما يحفظه من آيات القرآن الكريم إلى غيرها من الآيات، حتى يُتقن عمليا ما تمّ له حفظه أولا، إدراكا منه أن العلم الشرعي إنما جُعل للتنزيل والتنفيذ، لا لمجرد الاستحضار والترديد!

الصوفية والحفاظ على العلم الشرعي إبّان فترة الأزمات: من ذلك ما قيل في (نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري، 1640/4) عن أبناء الزوايا الصوفية: «لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر لكثرة الفتن التي ظهرت فيه، وهم: سيدي محمد بن أبي بكر في ملوية من بلاد فزاز، وسيدي محمد بن ناصر في الصحراء، وسيدي عبد القادر الفاسي بفاس».

الصوفية وتأسيس مدارس للعلوم الشرعية: من ذلك أن الصوفية بالمغرب كانت لهم الريادة عبر التاريخ في الحفاظ على الفقه المالكي وعلى العقيدة الأشعرية... وشيّدوا بذلك مدارس بكل زواياهم ومكتبات علمية امتدت مكانتها وقيمتها العلمية في الآفاق، ومنها: المكتبة الناصرية بتامكروت، والمكتبة العياشية الحمزاوية، وغيرها.... كما تبحروا كذلك في أصناف العلوم أصولها وفروعها؛ ومنهم الأسر الصديقية والكتانية وغيرها...

الصوفية وتضحياتهم لضمان أداء شعائر الإسلام إبّان فترة الأزمات: من ذلك الدور الريادي الذي قام به الشيخ أبو محمد صالح (دفين آسفي) وأتباعه، إبّان العصر الموحدي، في تأمين وضمان سلامة طريق الحجيج المغربي عبر طول الشمال الإفريقي وصولا إلى الحجاز؛ مع أنّ الفقهاء أصدروا فتاوى بإسقاط فريضة الحج على المغاربة بذريعة كثرة الفتن والاضطرابات لتي كان يعاني منها العالم الإسلامي آنذاك...

الصوفية والرجوع إلى الفقهاء: كان من الصوفية من حَدُّ علمه الضروري من علوم الدين –بمعنى أنه لم يبلغ مراتب الفقهاء والمحدثين– لكنه كان يرجع إليهم فيما أشكل عليه، كان من هؤلاء الرجال من سلك طريق التزكية والتصوف وبلغ الذروة العليا في باب الحقيقة القلبية والمعرفة بالله؛ نذكر منهم على سبيل المثال: الشيخ أبو يعزى يلنور الذي تخرج على يديه العديد من العلماء والفقهاء، كالشيخ أبي مدين الغوث والشيخ عبد الرحيم القنائي،... ونذكر منهم العارف بالله سيدي محمد البوزيدي الذي تخرج عليه أحمد ابن عجيبة، وهو عالم كبير وفقيه متمكن... وهكذا...

وقد كان لكل هؤلاء الفضل في نشر الإسلام ومُثله العليا، داخل الأقطار الإسلامية وفي كل البقاع البعيدة التي ما كان أن يصل إليها إلا من تجرّد لله تجرداً كاملا...